الفصل الرابع

رجال وثيران

- مسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل .
- نظامية الحياة .
- دور الجمهور في الحفاظ على القيم .
- يونويا (الألوهة) .
- ثمن البطولة .
- فردية البطولة .
- نوبة المصارع .
- المركز والمحيط وحرية الإنسان .
- قدرية المصير .

مسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل :

لقد شغف الفنان العالمي (بابلو بيكاسو) دونا عن بقية الفنانين بالتعبير عما يحدث في (الألرينا) من صراع بين الثور والإنسان (الميتادورز) . ولابد أن ما يحدث في (الألرينا) قد اتخذ أبعادًا أعمق وأشمل من أنها مجرد لعبة أو تسلية وترفيه . فهي – في حقيقتها – ترمز إلى صراع الإنسانية عبر مراحلها الطويلة خلال طريق التقدم والتحضر . ذلك الطريق أو تلك المراحل كانت صراعًا مطردًا بين القوة الغاشمة المتمثلة فيما حول الإنسان من ظواهر طبيعية وبين عقله . وكان الانتصار والظفر – رغم ضخامة وقوة وشراسة ما حول الإنسان – في جانب الإنسان . فقد استطاع بتلك القوة السحرية المتمهلة المتأنية أن يتغلب على الطبيعة ويستأنسها ويسخرها .

وفي بداية الرواية تنشأ علاقة بين القاص و (الميتادورز) لم يستطع القاص أن يضع لها اسما . أما لماذا نشأت تلك العلاقة بينه وبين تلك الشخصية بالذات ؟ فيفسرها القاص بقوله . (٨) : (وربما الذي استوقفني في الوجه أنه الوحيد المنمر الشحوب وكأنه من نوع خاص ، نابع عن إحساس خاص لا يشاركه في سواه ، وكأنه وحده هو الذي يدري ، ووحده الذي يتوقع ، وحده الذي حين نراه ينقل إلينا علمه ، وبدأ أنت الآخر تدرك وجود شيء في الجو والمكان سيء أحس غير الناس والأزدحام وتمس ما بعد الطهر وصحة (الفيستا) والاحتفال ، شيء حاضر خفي داكن رابض ، ينتظر اللحظة المناسبة لتعلن جسما عن وجوده ويقفز وفي الحال وددنا عن ثلاثين ألف إنسان . ويمثل شرارة النماس ولابد أيضا أن يدق قلبك دقة الخوف ؛ إذ ندرك على الفور إدراكا غريزيا سيما وكأننا بفعل كالإلهام أن ثمة شيئا غير عادي سيقع اليوم لصاحب ذلك الوجه . وأنه أبدًا لن يغادر الإريا) نفس

الحال التي جاء بها . هذه الدقة المفاجئة وما صاحبها من ارتعاج صغير عابر حددت لحظة خطيرة عريضة في حياتي . لحظة التقاء الإنسان جديد لم يكن منذ بضعة بعشرين أمره ، فعندا بالدقة تبدأ معها علاقة وتتعدى العلاقة سرعة مراحل التعارف الأولى إلى مرحلة الصداقة بل تتعداها إلى ما هو أكثر . مرحلة القلق العظيم على الصديق . والتتبع المشفق لخط مصيره) .

وبدأ هذا الخيط الرفيع أو الوتر المشدود بين القاص وتلك الشخصية حينما ينشد الكاتب من أعماقه حينما يشرف (الميتادورز) على الموت بطلعنة من طلعنات الثور الهائج . وحينما يترك القاص يأخذ أنفاسه . حينما ينتصر المصارع في جولة من جولاته مع الثور . وربما تكون تلك العلاقة – من جانب القاص – لأن تلك الشخصية تحمل قدرها فوق يدها . ومصيره محدود بحيز زماني ومكاني محدود . . . نعم . فمصائرنا كلنا محددة ولكنها مجهولة لنا . أما هو فعلى الأقل يحالجه شك في أن نهايته قد تكون على قرون الثور . والإنسان في مثل هذا الموقف لابد وأن يسترعي ويستحوذ على اهتمامنا . فالمصارع يدخل في صراع بين قوة الثور وبين عقله ودكائه . ولن ينتهي الصراع إلاّ بموت احد الطرفين . الثور أو المصارع . هذا الصراع انتقل من ساحة (الأرينا) إلى صدر القاص وبين الثور والمصارع إلى نفس القاص متمثلا في خوفه وقلقه على مصير المصارع .

وحينما رسم المصارعون علامة الصليب قبل بداية المصارعة استوقفت تلك الحركة القاص . فقد أحدها أول الأمر كعادة من العادات الكاثوليكية يؤديها الإنسان بدون وعي منه . إلاّ حينما نظر القاص إلى صديقه المصارع هذا . فقد لمح

(كان ثمة ابتهال حقيقي واضطراب لابد علت معه دقات قلبه . وخيل لي أن لونه ازداد شحوبا) .

إذن فهو يرسم تلك العلامة مدركا لأبعادها . مدركا أنه قد لا يخرج من الحلبة إلاَّ محمولا وقد فارق الحياة . حينئذ أدرك القاص أم ما يجري أمامه ليس لعبة . وإلاَّ أين تلك اللعبة التي قد يخسر الإنسان فيها حياته ن إذن فما يحدث ليس بالهزل وإنما الجد بعينه وكل شيء حقيقي في الحلبة . (١٨) :

« إن مجرد تسمية الشيء باللعبة - حتى ولو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوش - يعطينا في فيما لوبا ما . معنى غير جدي جدية تامة . حتى لو كانت خطرة فهي ليست سوى لعبة . واللعبة لا تقترن في تفكيرنا باللعب فقط . ولكن أيضا بالهزل . وليس ما... هناك.. فيما وراء كل ما كنت أراه من جدية وخطورة واستعدادات كانت فكرة أن المسألة كلها ليست بالوعورة والخطورة التي صوروها لنا في السينما والروايات. ولابد هناك من طرق متفق عليها وبسعة للتقليل من خطورتها في الباطن مع إضفاء ثوب الرهبة عليها من الخارج . هذه الحركة التي لمحتها في آخر لحظة . جعلت الشك يبدأ يتسرب إلى في اعتقادي . وجعلني أتساءل : أليس من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعة حقيقية فعلا . بلا أي عنت مما اعتقدته . أو اتفاق . وأن الناس جميعا يأخذونها جدا ما عداي ؟

تساؤل راحت الأحداث المتعاقبة تدعمه من ناحية . وتفنيه من نواح . وظللت لا أحد البرهان الدامغ الذي لا يقبل الشك ولم أكن أعرف ما ينتظرني بعدها) .

إذن ما يحدث أمامه ليس باللعبة على الأقل . وهناك احتمالات كثيرة ترجح جدية ما يحدث . لذلك فإن مفردات الموقف وجزئياته أخذت أبعاده الحقيقية فالسيف بيد المصارع سيف حقيقي . والصراع حاد وشرس وقد يخرج المصارع

مقتولا ، والثور أخذ صورة القوة الغاشمة الظالمة إلى الدم ، والجائعة إلى جسد المصارع ، فهي تتوق إلى أن تمزقه شر تمزيق . (٢٢) . (هذا المعوث الذاكن يمثل كل ما في الحياة من قوة وتعطش للعدوان والرغبة في التحطيم والدمار والتخريب ، هذا الذي من فرط سرعته ، وتجبره لا يكاد يستقر في مكان وينتقل من محيط الحلقة إلى محيطها الآخر قبل أن ندرك أنه انتقل .هذا الموجود بكل مكان ، المتحرك كالبرق كالضوء .. كالماء في كل اتجاه حركة بلا هدف إلا الحركة نفسها ، ورغبة في التخريب والتحطيم بلا هدف إلا التحطيم ذاته والتعلب على كل ما يقف في طريقه صديقا كان أم عدوا بلا هدف أو حكمة إلا هدف التعلب ذاته ، كتلة الحياة المركزة تركيزا جما في القمم المطلقة المنفجرة بلا غاية أو هدف تجسد لنا ذلك المعنى الذي كثيرا ما تداولناه حتى اعتدناه .. تجسد لنا كلمة الوحش وربما السبب والدوافع التي حدت بأحدادنا الأول أن يطلقوها على بعض أعدائهم من الحيوان)

نظامية الحياة :

ثم ينتقل القاص بعد ذلك إلى مستوى آخر من تأملاته . فهو يدرك أن تلك القوة العظيمة والاندفاع الأهوج يحكمه نظام . وطالما أن النظام الذي يحكم هذا الحيوان لم يختل ، فالثور هو الثور بكل ما يتفجر في جسده من قوة وغضب وانفعال . أما إذا اختل هذا النظام الدقيق الذي يبقى الثور حيا ، فسوف يقضي على النظام ويترك الثور بدون حياة ، ليبدأ نظام آخر في العمل . الفناء . (٢٧) : (نفس الجسد بنفس العضلات والقرون بنفس القدرة والطاقة وقد أصبح فاقدا كل القدرة وانتهت حركته إلى الأبد ولماذا ؟ لأن قطعة معدن صغيرة دخلت جوفه فاختل نظام الحياة داخله وتوقف . أجل نظام الحياة . إنه لشيء مضحك حقا أن نعرف أن تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي كانت تدور على هيئة فوضى كاملة تريد أن تعيث فسادا في كل شيء ، وتخل نظام كل شيء وتحيل كل شيء إلى مرق . هذه الطاقة الحيوية المتفجرة لتنشر الفوضى في كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة ، دقيق لولا ما استطاع أن يحرك ذيلا أو يبش ذبابة أو يأخذ شهيقا ، نظام يخشى أن تخدشه قطعة معدن أو دبوس لكي - من سدة إتقانه- يختل ويشبع كنظام حياة ليبدأ بعمل فيه نظام آخر نظام الموت والتحلل والفناء)

ليس نظام يحكم الثور فحسب . بل يحكم كل الأحياء بما فيهم الإنسان .وإنه لشيء عجيب حقا . فكل الكائنات الحية محكومة بنظام غاية في الدقة . هذا النظام يحكم الموجود ، أو هو الصلة بين الموجود والوجود .وأقل شيء يستطيع أن يحل بهذا النظام كفيل بأن يقطع الصلة التي تربط بين الموجود والوجود .

دور الجمهور في الحفاظ على القيم :

للجمهور دور خطير في الحفاظ على قيم اللعبة . فهو ربما يقوم بدور المتفرج فحسب . بل يقوم بدور الحكم الأول الذي يحافظ على منطق وقيم اللعبة . ويتدخل إذا رأى ثمة خروجا عن اللعبة . فيحتج ويعترض إذا ما كان الثور صغيرًا أو ضعيفا ويعترض الجمهور كذلك إذا ما حاول المصارع أن يقتل الثور مخادعة أو غدرًا وهناك دافعان يدفعان الجمهور لاتخاذ هذا الموقف :

الأول : رغبته في الحصول على أكبر قدر ممكن من المتعة وهذا لن يتيسر إلاّ إذا كان الطرفان – الثور والمصارع – متعادلين في القوة .وبهذا التعادل بين الطرفين تأخذ اللعبة أبعادها و رموزها . (٢٣) : (إنه يريد أن يظفر بأقصى متعة وهو لا يفرق حينئذ بين الطرف الإنساني أو الحيواني في هذه اللعبة . كل ما يهمه أن يكون الطرفان قويين . وأن يكونا أيضا متعادلي القوة بحيث لا يخطئ أحدهما بانتصار سهل على الآخر . وبحيث يطول المعركة ويصعب ويحبس بحيث كل طرف منهما أقصى ما لديه من طاقة وفن . ويتسارع النبضان قد يندو للأحمق لعبة يقتل فيها الرجل الثور أو يخدش الكارية ويقتل الثور الرجل . ولكن الجمهور الإسباني لا يأخذها هكذا أبدا إنها عنده مصارعة بكل ما تملكه الكلمة من معنى مصارعة بين القوة الحيوانية الوحشية العاتمة من ناحية والذكاء الإنساني والرشاقة وسرعة الإدراك والفطنة وسعة الحيلة من ناحية أخرى . مصارعة بين شجاعة الحيوان اللاواعية وشجاعة الإنسان الواعية . مصارعة بين الحياة في غرائزها القوية وبينها في رقيها الذي أضعف قدرتها العقلية . باختصار مصارعة بين العضل والقوة .)

الثاني : إنه لا يهتم بالوسيلة قدر اهتمامه بالغاية ، فلا يعنيه أن يقتل المصارع الثور ولكن جل اهتمامه هو كيفية هذا القتل بحيث يكون متضمنا كل معاني الشجاعة والبطولة . ، إن معناه هنا أن الغاية في نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة وأن يحتمي فارس بالدروع ليطعن الثور المتوحش القاتل في ظهره، وسيلة ليست مشروعة من وسائل الحرب ، والوسيلة في الحرب - أي حرب - لا تقل أهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها ، إنه احتجاج ضد الخداع والجبن ، أن للجمهور دورا أخر في المباراة دورًا مهمًا ؛ أن يحافظ على (القيم) ويحرسها ليس مهما في نظره لمن يكون النصر المهم دائما وأبدا كيف يأتي الانتصار) .

وعادة أن الإنسان يجب أن يلتزم بالقيم والمبادئ مع أخيه الإنسان ، أما مع الحيوان فالقيم والمبادئ ليست واردة في الأمر ، ولكن حينما يتمسك الإنسان بالقيم تمسكه هذا لا يكون مع الإنسان فقط ، بل مع الحيوان أيضا ، فالسلوك يصدر عنه متسما بتلك القيم سواء كان تعامله مع الإنسان أو الحيوان،كما يقول رسولنا الكريم : (دخلت امرأة النار في هرة .....) فهنا يراد بالرحمة أن تكون في جبلة وطبيعة الإنسان تكون ممتزجة بكل سلوك يصدر عنه ، لا يختلف سلوكه باختلاف نوعية الكائن الذي يتعامل معه .

وإذا كان الجمهور في تلك اللعبة ينحاز - بطبيعة الحال - إلى المصارع ضد الثور ، فإن هذا الانحياز مناط بمدى تمسك المصارع بمعاني الشجاعة والبطولة والإنسانية - مع أن هذه اللعبة ليست فيها ذرة واحدة من الإنسانية- وهؤلاء يدفعون المصارع إلى أن يجهز على الثور بسرعة وبدون أن يترك له فرصة أن يتألم أما إذا أخطأ المصارع وأطال مدة التألم ، بأن أخطأ التصويب ، فالجمهور لا يتردد

في الانحياز للثور والوقوف ضد المصارع بل قد ينتصر للثور المقتول . وينظر باحتقار واستهانة للمصارع الحي . كل هذا لأن المصارع جعل الجمهور يشعر بالألم والإشفاق والرثاء لهذا الثور المسكين . فهي مشاركة في الشعور والإحساس حتى ولو كان مع حيوان . فليس هناك فرق بين إحساس الإنسان بالألم وإحساس الحيوان . بل الأمر مع الحيوان أدعى للرثاء والإشفاق . ويتغير موقف الجمهور فبعدما كان مع المصارع ضد الثور . يتحول ويصبح مع الثور ضد الحيوان . (٤٣) :

(وفي ساحة صامتة كئيبة مليئة بالخوف والتوتر والدم والانتصار وكأنما الجمع حتى المشاهدين قد ساهموا وبدد هيبة في ارتكاب جريمة حلقية شاذة . انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذي ذبح الثور فلا انتظار لتحية هذه المرة أو رغبة حسنة أنه سيخرج قبل أن يغطى إلى الحمير . ويمضي قادما إياه بكل ما في متناوله . وكان الجمهور لا يزال يحيا مع الثور المقتول وكأنما يقيم له جنازة تلقائية يتذاكر فيها كل ما أداه خلال المصارع من ألوان القوة وطريقته الخاصة . الصمت يزيد .

وجاءت الخيول الأربعة وأحكم وضع الحبل على قرونه . وبدأت تجره خارج الساحة وفي أعماق الصمت المخيم اندفع فجأة هواء هذه المرة عميق وحقيقي لا سخرية فيه ولا صفير وظل يتسع حتى الثور حتى غابت خيولها خارج الساحة . وكان الهواء استيحاءا للفعله . الطريقة الوحيدة التي يستطيع الجمهور في وقت كهذا أن يبدي سخطه ويصدر حكمه . الحكم بانتصار الثور المست على (المنادور) الحي . طريقة جبل إلى من صراحتها وصراعها وقسوتها أن المنادور لحظتها لابد فتل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا التحديد على أن يكون هو الحي بكل ذلك الاستيحاء . وأي إنسان مكانه رغما عنه لابد يتمنى أن يصبح الميت المنتصر ولا يبقى لحظة واحدة ذلك الحي المهزوم

إن الهيئة عليا وأمام الملأ هكذا ويحكم جماعي يصدره الآلاف مرة واحدة ومباشرة الهيئة التي لا تقبل جدلا ولا تملك أن تبررها حتى لنفسك وما يصاحبها من ذل وجري أكثر إيلاما من الموت نفسه . إن فقد الحياة أهون بكثير من الحياة مع معاناتها) .

وتذبذب الجمهور هكذا يضع المصارع في موقف حرج . فهو أمام أمرين أحلاهما مر . فإذا أراد مجاملة الجمهور قد يخسر حياته بطعنة من طعنات الثور وإذا لزم جانب الحرص والحذر خسر الجمهور وتشجيعه وعطفه . وتلك معادلة صعبة تستنفد من المصارع كل طاقاته الجسمانية والعقلية ليحققها . لأنها في كلا الطرفين خسران .

يوتوبيا (الألرينا) :

كل إنسان يصبو أن يعيش في عالم مثالي تحكمه القيم والمبادئ . ويكون متسما بكل الصفات الحميدة في سلوكه وأفكاره . ذلك لأن حياة الإنسان الواقعية قد تكون خالية من القيم التي تعطيها نوعا من السمو والرقي . فحياته مملة مقفرة خاوية . وكأنها مسرح متهدم مظلم تتردد في نواحيه أصوات البوم والغربان . ويقوم الإنسان فيه بدور المنكسر المهزوم الضائع . لذلك يلجأ إلى الخيال . ليخلق عالما متألقا يشع بنور القيم والجمال . ويقوم بدور البطل الذي يجسد كل معاني السمو والرقي ويمتلأ كيانه بحي وعشق هذا الوجود . (الألرينا) تمثل – بكل ما تحفل به من ضروب الصراع – عالما مثاليا يجده الإنسان المطحون الذي لم يترك له وجوده الفظ الغليظ فرصة لينشد أي معنى من معاني الجمال في وجوده . فتقوم (الألرينا) بدور المعادل الموضوعي لتعوض الإنسان عما فقده . وربما لم يستطع أن يظفر به في حياته وواقعه الجاف . (٤٥) : ففي هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالما آخر مختلفا

عن العالم في الخارج وفي كل مكان . عالم الهدف فيه ليس أن تحيا أو تحافظ على وجودك الهدف أن تنتصر ، بحيث تحل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت ، وبحيث تختلف كل المقاييس تبعا لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود ، وكأن الناس هنا لم يستطيعوا أن يغيروا هذه المقاييس في حياتهم العادية فاشكروا مصارعة الثيران أو نسوها وجعلوا لها ساحة ، و (أرينا) ومنحها وعالما كاملا يدخلونه ليحيوا ولو لبضع ساعات كل أسبوع بهذه المثل والقيم ، وبدلا من أن نقرأ كتابا يروي لك قصة بطل لا يهمه الموت أو الحياة بقدر الهزيمة أو الانتصار ، وبدلا من أن تدخل دار للسينما أو مسرحا نطفأ فيه الأنوار ونعيش أو نقنع نفسك أنك تركت عالمك المملوء بالتعقيد ، وبلايين الناس المنشغلين بالحياة – وأنت منهم – تشيح بوجهك ، وأصبحت في عالم آخر عالم مخلوق من أناس أبطال لا يتردد أمام أي صراع أو خطر يختبرون فيه أو يمتلكون ذويه ، بدلا من هذا أوجد الإنسان لأنفسهم هذا المسرح الحي الذي يصير كائنات من الأحياء ، مسرح لا يخدعونك بتمثيل الصراع فيه ، ولكنك تجد نفسك أمام صراع حقيقي لا تمثيل فيه ولا تزييف الجماهير المطحونة المجهولة في حياتها اليومية المنمسكة بالحياة رغم تفاهتها تسكنا مستميتا لا يخلصها منه سوى قوة قاهرة حاسمة كالموت هذه الجماهير تدخل الساحة لتشيد أبطالا يستحقون بالحياة إلى درجة السمو إلى درجة البطولة في سبيل أن ينتصروا).

هناك خيوط وثيقة العرى تربط المصارع الفرد بالمجموعة . فهو لا يخوض الصراع منفردًا وإنما الجمهور يخوضه معه . والجمهور يشعر بلذة ونشوة النصر ومشاعر البطولة من خلال المصارع فهو لا يجلب النصر لنفسه وإنما لهم . فهم قد تقمصوه . إنهم يعيشون الحياة بكل طاقاتها الوجودية ، ويشعرون بها من خلال كل ذرة في كيانهم . فحياتهم تمر كمر السحاب . لا طعم ولا رائحة . وكل فرد كأنه ترس أو مسمار في عجلة الزمان العتيقة . حتى إذا ما جاء عليه البلى ، جاء دوره

في الإهمال والنفي والنسيان . تمر أيامهم هكذا إلا تلك اللحظات الخالدة . لحظات الصراع ولحظات الانتصار . تلك اللحظات تخرج عن الحياة وملل الأيام . إنها صدع في جدران عالم الكآبة والإحباط . والخروج إلى عالم متألق فواح بشذى التجدد والتغيير المستمر نحو الأفضل . كل تلك المسئولية الثقيلة والخطيرة يحملها على الجمهور على عاتق المصارع . و ياله من تمجيد. وكم من أكاليل الغار والزهور التي يُقذف بها المصارع غدا حقق ما يريده الجمهور . وكان عند حسن ظنه . وهذا الخسران المبين والفشل الذريع والحسرة والمرارة إذا ما خيب المصارع ظن وتوقع الجمهور وفشل في المهمة الملكف بها . فهزيمة المصارع هزيمة لكل فرد من الجمهور ولابد أن يكون هناك مسئول عن الهزيمة . ولابد أن يكون هناك عقاب . (ولهذا فالمصارع لا ينظرون إليه نظرة تمجيد منفصلة عنهم . إن كلا يخوض الصراع المخيف من خلاله ويرسل كل منهم جيطا من ذات نفسه . وروحه لتتجمع آلافيا وتلتقي عند المصارع ويصبح ربما يخوض المعركة .. يخوضها أساسا لحسابهم وكأنهم أناموا عنهم ليقوم بالعمل البطولي العاجزين هم عن القيام به . ولهذا أيضا فما أشد ضغطهم عليه، إذا لم يقم بعمله كبطل إذا عمل حسابا لكبائه المستقل . ومحافظة عليه . تباهون في القيام بالبطولة التي وكلوا إليه أمرها

إنهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة شاب يصارع ثورًا في حدود أن طال حبا وليولم يصرعه . إنهم جاءوا ليسبوا عنهم بطلا ...بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها ؛ وهذا فمنعتهم الكبرى هي حين يحدق الخطر بالمصارع . وفرحتهم العامرة ليست هي أن ينقذ نفسه بتجنب المأزق الخطر . ولكن أن يضع نفسه في المأزق الخطر . ويخرج منه سالما . أن ينتصر على الخطر مواجهته . وليس بتجنبه . فهم في حياتهم يفعلون هذا . هم دائما يتجنبون الخطر

ويتريدون من المارق يؤثرون أن يوصفوا بكلمة الجبن أو الرعونة مع النجاة أو البقاء أحياء . وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون بفعله ، أن يوصفوا بالبطولة ولو كان فيها مواجهة متعمدة للخطر وتعرض أكيد للهلاك)

لهذا الدور الذي يقوم به المصارع تختلف نظرة الجمهور عليه . فهو يجسد لهم قيمة البطولة . متلهم في هذا مثل الأب الذي لم يستطع أن يحقق هدفا في حياته فسعى أن يحققه ابنه . وبذلك يحقق هدفه بطريقة غير مباشرة . فقد أناب الأب ابنه أن يحقق ما لم يستطع تحقيقه . كذلك الجمهور أناب المصارع أن يحقق البطولة . (ولهذا فالمصارع في أسانيا ليس مجرد نجم رياضي . إنه أولاً وأساسًا بطل شعبي وأداة الشعب للبطولة . وكما لا يمكن أن نقبل الناس من بطلها السياسي أن يساوم أو يهادن فبي أيضا لا نقبل أبدا من مصارعها أن يتورط بعمل ليس فيه بطولة . يجب أن يرتدي أجمل الثياب ويبدي إعجابه علانية بأجمل السيدات وأن يتصرف دائما وأبدًا كبطل هذه الواقعة التي يمسح فيها صدره ويقذف برأسه إلى الخلف رافعا ذقنه في نرفع وكبرياء . سنفرا التورهذه الواقعة التقليدية لم تأت عبثا . إنها وقعة البطل هذه المرة القاتلة إذا هو أو فشل في إظهار بطولته لم تأت عبثا أيضا فهي ليست هيئة شخص عادي إنها هيئة بطل)

ثمن البطولة :

ولكن ما الذي يدفع المصارع إلى تلك المغامرة ؟ وما الذي سيأخذه المصارع إذا كانت نهايته على قرون الثور ؟ فلا شيء يعدل حياة الإنسان !

تلك النوعية من الناس لا تريد الحياة وكفى ، وإنما تريد الحياة الممتازة التي يحدسه الجميع عليها ، والكل يشهد برقيها وسموها فوق مستوى الحياة العادية إلاَّ أن ثمن تلك الحياة فادح فهو قد يكلف المصارع حياته وياله من ثمن فادح ويا لها من مكافأة تافهة لا قيمة لها عند من لا يقدر قيمة البطولة . (وكم هو غريب ذلك التكريس الذي يشأ عليه (الميتادور) فهو مستعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للحدث الأكثر من أجل (أوليه) إعجاب قد تكون أحرما بسمعه ، بل قد يشفي غل سماعها .

ولكنه الإحساس بالأهمية ذلك الذي يدفع الإنسان ليقدم على أكبر حماقة في العالم كي يظفر به . إنها ليست رغبة في البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته ولكن لإظهارها للآخرين وأمام الآخرين . فالتمثيل وفيها من الشيء الكثير! الفرق أن الممثل هناك (يمثل) الدور بمقدار إتقانه (للتمثيل) وتقمصه لشخصية البطل بمال إعجاب الناس ، وهنا الممثل (يقوم) بالدور فعلا ، ويقوم به في مسرحة لا يتخيلها أحد إنما في واقع كأنه مسرح في حقيقة كأنها خيال . وبمقدار إتقانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال يحظى بالإعجاب أجل ! الفرق في المسرح وحلبة الصراع أنهم في المسرح يحاولون أن يحيلوا الخيال إلى حقيقة يصدقها العقل بينما في الحلبة يحاولون أن يحيلوا الحقيقة والواقع إلى أعمال خيالية لا يكاد يصدقها العقل ! في المسرح يخلقون من الخيال حياة ، بطلة تدفع إلى كره الحياة الواقعية وتعيرها ، وفي الحلبة يخلقون من الحياة العادية الخاملة نفسها حياة بطولة حقيقية تدفع إلى نفس

الغرض . ولكنها تدفع إليه بقوة أعظم وبفعول أشد . إن الإنسان في بحثه الدائب عن بطولة الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدم أية وسيلة حتى تلك الملوثة بالدماء . المقطرة بالجريمة إنه يبحث أيضا . ولكنه يبحث بطريقة غريزية غاوية القسوة لا يغفرها إلاّ أنها غاوية المفعول في نفس الوقت) .

فردية البطولة :

ولكن أهناك مفهوم محدد للبطولة ؟ وهل تلك القيمة لم تتغير على مر العصور وتطور الإنسان ؟

وهل القيم التي كانت تحكم المجتمع في العصور الماضية ويعتمد عليها المجتمع في بقائه وتماسكه هي نفس القيم التي تحكم المجتمع الإنساني في العصر الحاضر أم أن يد التطور نالتها بالتغيير والتبديل ؟

تلك القيم تغيرت . ولكن لم يتغير مفهومها العام أو إطارها الخارجي . فمنذ من العصر القديم إلى العصر الحديث صورة الفرد ينشد البطولة . ينشد عملا يجسد من خلاله قيم البطولة . والمجتمع يبارك تلك البطولة التي حققها الإنسان منفردًا بصدقه وسلوكه في موقف في غاية الخطورة . بدون اتخاذ طريق ملتو أو شيء من هذا القبيل . (٦١) . أن يخوض إنسان بطل الوجودي . وبطل الصراع سيما سجالا أو يكاد تحسب المواقف الفاصلة نتيجة ضعف أحد الطرفين وإما نتيجة رغما عن الاثنين معا وبسبب تعادل قوتيهما في الصراع وحين يحدث هذا الموقف الفاصل الإحباري يصبح على الإنسان فيه أن يتقدم بكلتا القوتين وأية وسيلة وإما عليه أن يختار أكثرها جرأة وحذقا وذكاء . أن يختار الطريق البطولي وحينئذ لو نجحت وأنقذ بها نفسه استحق البطولة عن جدارة وحينئذ لو فشلت ومات اعتبرت ميتة أبطال وخلد ذكره)

أما في العصر الحديث فقد تغير مفهوم البطولة في ذهن المجتمع . فماذا يفيد المجتمع من تلك البطولات المنفردة المقتصرة على نفسها ، التي لا يخرج نفعها عن إطار ذاتها ؟ وإذ يصفق المجتمع للبطل لا يصفق له لأنه أضاف شيئا جديدًا للمجموع ، وإنما تصفق لأنه حقق لذاته ما كان يصبو غليه من خلال قيامه بأعمال توصف بالبطولة . ولكن أصبحت البطولة الحقة هو مقدار ما يضيفه البطل إلى المجموع من نفع وفائدة للمجتمع . فالبطولة لم تعد متقوقعة داخل ذات الإنسان وإنما خرجت وانفتحت لتعطي الكثير للمجتمع ، ليمنحها - بعد ذلك - التمجيد (٩٣) : (إنها نص بإعجاب له هدف تصفق لمن يقدم لها بطولته المصلحة والخدمة العظمى الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة أو بأخرى ، من يسيطر على أكبر قدر ممكن من مصادر القوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للناس مطالب وأعمالا عجز غيره عن تحقيقها ، وهي بطولة أرقى . ففي الماضي كان الشخص يقوم لنفسه ولمجده ولذاته فيصفق له الناس ويمنحونه لقب البطولة ولكنا في عالمنا الحاضر نمنح البطولة لمن يقوى لنا ولفائدتنا) .

فإذا كان قيمة البطولة هي ما تضيفه للمجموع ، فما سبب حب الجمهور لتلك اللعبة ، وقيمها تختلف عن قيمه وقيم عصره ؟ وما الذي يجذبه ليجلس ساعات يتابع بكل حرص واهتمام وترقب ، ومشاعره وأحاسيسه للمصارع تارة وعليه تارة أخرى ؟

لابد وأنه - الجمهور - قد آمن بالبطولة الفردية ، ولكن هذا لا يكون إلاّ إذا تخلى عن الإيمان بالبطولات الجماعية .

في الحقيقة هو يؤمن بالمبدأين ، بالبطولة الفردية حينما يرتد إلى العصر القديم من خلال المصارع ، ويؤمن بالبطولة الجماعية حينما يعود إلى عالمه الحديث أي أنه يؤمن بقيم العالم الذي يعيشه ولو بالخيال ، والذي يجذب المشاهد إلى أن يرتد إلى العصور القديمة ..عصور البطولة الفردية ما يموج ويحدث في الحلبة ، وهذا يكون له تأثير عظيم على عقلية ونفسية المشاهد ، (٩٥) (اندماج لا يحدث في العادة بسهولة ولا يتم فجأة أو بساطة فهو يستغرق وقتا وجهدا وجلدا بين أن تسلم وتصدق وبين أن تسخط وتكذب ، اندماج في الحقيقة لا يتم بإرادتك أبدًا وإنما أنت تجر عليه ، الحراب والمارق والدم الغارب والخطورة التي تحدق بالمصارع لدى كل حطوة) .

والمشاهد لما يحدث في الحلبة ليس له خيار في أن يقتنع أو لا يقتنع ، فهو مجبر على الاقتناع والإيمان بكل ما يحدث أمامه ، وما ينتج عنه من تأثيرات في نفس الجمهور ، لأن وسيلة الاقتناع هنا ليست التي يستطيعه أكثر الناس وأقلهم قوة وإصرارا وشجاعة ، ولكن وسيلة الإقناع هنا هي الفعل ، وكل ما يحيط بهذا الفعل من مخاطرة ومجازفة قد تودي بحياة المصارع في لمح البصر (٩٥) (وأن يبادي شخص هذا ، وكلامه وما لا يدفعك هذا للاقتناع به ولكنك لابد تغير رأيك حين تراه يخوض المعارك الدامية من أجل هذا المبدأ فتعرض نفسه لخطورة الموت بساطة دفاعه عنه)

وهذا الاقتناع بداية لصراع حاد بين القيم التي تحكم اللعبة ، وكلها قيم سامية وبين عالمه الناقه ، فهو ينشد هذا العالم المثالي الذي يعتمد أول ما يعتمد على قيم البطولة والشجاعة والجرأة والمواجهة ، وهو حين يقارن بين العالمين يصاب بخيبة أمل ، فالعالم الذي يعيش فيه في الحاضر خال من كل معاني البطولة ، لذلك فليس

أمامه إلى الذهاب أو الرجوع إلى العالم القديم من خلال حلبية الصراع . (٩٧) :

(أولئك الذين يغادرون (الألرينا) لمدة زلزال قد حدث لعقولهم تحطمت على أثره أشياء في تفكيرهم وارتبكت أشياء . يخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا ! لقد دخلوا مجرد قادمين من عالم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواصفاته للبطولة وها هم قد خرجوا وقد أتيح لهم أن يحيوا في عالم آخر . ملك عليهم تفكيرهم بحيث لا يستطيعون التخلص من أثره وبحيث يقضون أياما كثيرة بعدها طلاب بطولة على نسق التي رأوها . وياحنين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان . وكأن الألرينا بالنسبة إليهم اكتشاف في عالم هم يحتقرونه ويشمئزون من علاقاته الشريرة ومحارمه الكثيرة وضعف الرجال منه ذاهم ساقين حيث يجدون في تلك الواحة التاريخية مذوحا حبا صادقا لعصر بطل . فتسكرهم النفحات ويتمنون أن يبقوا إلى الأبد هنا . أوحين يضطرون إلى مغادرة الساحة إلى إحالة عالمهم الحاضر كله لتصبح على شاكلة تلك الواحة)

ثورية المصارع :

وإذا كان البعض يخرج من (الألرينا) وهو متخم بالإعجاب بتلك القيم العظيمة . ثم شيئا فشيئا وتحت نيران الواقع المعاش . فإن هذا الإعجاب يذوب وينمحي ولا يبقى له إلا ذكرى تراود هذا الذهن الكليل والخاطر العليل . إلا أنهم يخرجون وقد حفرت أحداث الألرينا في نفوسهم أثرًا لا يمحى ويظل خيط الإعجاب والتعلق بالحلبة موصولا لا ينقطع . بل يحل يصل الأمر أن يتمنى أن يكون واحدًا من المصارعين . ففي داخل الحلبة يجد الشخص كل ما ينشده من أحلام وأمنيات . فالمصارع حينما يحمل قدره على يديه ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت في كل لحظة يخطو الثور بقرونه المشرعة نحوه . ولهذا يجبر

المصارع المجتمع على احترامه بل السعي إليه والتصفيق له . بتلك الوسيلة المحفوفة بالمخاطر وبالموت يصل المصارع إلى ما يريده من اعتراف المجتمع به . أو يصل إلى الوجود المنشود . (٩٩) : (إنهم جميعا أناء فقراء وأحيانا بلا آباء . خرجتهم طفولة محرومة وعذبهم وعاندهم المجتمع صبية وشبانا . وفي المصارعة عثروا على أنفسهم ،على الوسيلة التي يستطيع بها السفاح البشر أوامر الحرام الجائع العاطل أو يفرض نفسه على المجتمع بكل ملابسه وزيفه وطغيانه . وكما يأتي الانتصار ومن لذة البطولة في المصارعة باحتيار الموقف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التغلب عليه بعد هذا واقتحامه . فهم أيضا في سبيل فرض أنفسهم على المجتمع الذي حرمهم من كل شيء يختارون الطريقة الأخطر أخطر طريقة العمل كمصارعي ثيران . ذلك الذي يعرضون أنفسهم فيه للموت الكثير كل لحظة ثم لا يبالون . يتحدون الموت ويستهترون ويحسى لهم المجتمع معترفا ومنحنيا ومصفقا)

المركز والمحيط وحرية الإنسان :

والإنسان لا يتسلح بسلاح العقل فقط في صراعه مع الثور . بل هناك ما يوازي أهمية وخطورة العقل . بل قوة وتأثير العقل متوقفة على هذا الامتياز وهو امتياز الحرية . فالذي يميز الإنسان عن بقية الكائنات ما يتمتع به من حرية فهو ليس محدد على السير في طريق رسم له من قبل وإنما له مطلق الحرية في الاختيار ولديه بدائل متعددة وكثيرة . يختار من تلك البدائل ما يهديه إليه عقله وأشار القاص إلى هذا الأمر . بأن المصارع يقف في نقطة المركز من الدائرة وهذا يتيح له أن ينتقل إلى أي مكان بدون قيد وبسرعة شديدة . أما الثور فغير متوافر له الحرية أو الموقع (الاستراتيجي) . فالثور مقيد في حركته .حركته محيطية أو دائرية . وتلك نقطة ضعف في الثور تقابلها نقطة القوة لدى الإنسان . (٨٢) .

(قدرة الإنسان على أن يستدير حين يريد في نقطة ، وعدم قدرة الثور على الاستدارة . هذا الفرق بين النقطة والدائرة بين المركز والمحيط ، هو الذى يصنع منطقة الأمان التى يحمي بها المصارع ويضمن ضمانا أكيدا ألا يهب الثور طالما هو داخلها لا بتعادها . وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حينما يقبل مهاجما وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفا في مكانه ناظرا إلى أن يصبح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التى يصنعها الثور إذا دار حول محوره أى الدائرة الكائنة بين ساقيه الأماميين والخلفيين . على المصارع أن ينتظر إلى أن يصبح الثور منه على هذه المسافة لأنه لو تحرك والثور على بعد أكثر ففي استطاعة الثور أن يغير اتجاهه ويحرف ويصيبه ، أما حين تكون بينهما هذه المسافة ويحرف المصارع فإن الثور إذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقا أن يصله أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتاز المكان الذى انحرف إليه المصارع حتى أصبح المصارع يواجه منتصف ظهره ، ويعرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فورا ، فهو لا يملك أيضا أن يصيب الرجل وعليه لكل يفعل أن يستدير ليواجهه برأسه) .

فلا فائدة ولا جدوى من العقل بدون الحرية . وكأن العقل والحرية لفظان متلازمان . لا يمكن تخيل أحدهما بدون الآخر . فلن يخرج العقل طاقاته المكنونة ويغير ويطور إلا في جو مشبع بالحرية . فكل الكائنات لها عقل . وتستخدم عقلها كما يستخدمه الإنسان . ولكن الإنسان منح الحرية وهي ليست متوافرة للكائنات الأخرى . وبالعقل والحرية استطاع الإنسان أن يبني حضارته ويرتقى درجات واسعة وكثيرة في سلم التطور والتقدم .

قدرية المصير :

أوثق الصلات تلك التي تنشأ بين إنسا وآخر إثناء مواجهة الإنسان قدره ومصيره . فتلك أحرج وأدق اللحظات المصيرية . وليس مهما أن نضع اسما لتلك الصلة . أو أن تكون متبادلة بين الطرفين .

وقد نشأت علاقة بين القاص والمصارع . وقد تعرضت تلك العلاقة للتوتر والتطور باطراد الأحداث والمواقف في حلبة الصراع .

والخط الدرامي الذي بدأ أول الرواية بتوجس القاص أن اليوم سيكون نهاية المصارع . وحتى التوجس من جانب القاص هو الذي أوجد تلك العلاقة بين القاص والمصارعة .

ففي بداية الأمر أوشك المصارع أن يلقى حتفه . حينما نهض الثور فجأة وقد أوشك على الموت حينما احترق سيف المصارع صدره . وعندما نهض الثور متجها إلى المصارع اشتبكت ثياب المصارع بقرون الثور وألقاه الثور أرضا ن واستطاع المصارع أن يتفادى – بعد ذلك – القرون القاتلة . وبالرغم من أنه سقط بعد ذلك ووقف مواجها للثور . إلا أن السقطة الأخيرة كانت بمثابة استسلام من المصارع لقرون الثور . فقد كان هناك متسع من الوقت ليقف المصارع لمواجهة الثور . ولكنه لم يقف ولم يواجه الثور . أما لماذا لم يقف ولماذا لم يقاوم . فهو قدر المصارع أن تكون نهايته في تلك اللحظة وفي هذا المكان وبذلك السبب . وكأن المصارع قد عرف أن تلك اللحظة لحظة المصير . وأن هذا قدر لا فرار منه ولا مواجهة إلاّ بالاستسلام والخضوع . هي نفس اللحظة التي مرت بها (عزيزة) حينما

استسلمت (لمحمد بن قمرين) في رواية الحرام . وأطلق القاص على تلك اللحظة (سهم الله) فهو القضاء ولا رد ولا مقاومة لقضاء الله . فكل مقاومة الإنسان والقدرة على الهرب تختفي ولا يبقى إلاّ الاستسلام المطلق لقدره . (١٢١) :

« ولكنه لم يقف لي بعنفل ولا حتى رفع ذراعا أو حرك ساقا . رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتا إلا أنها أثارت استنكارا فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المفقس أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المفقس . وكأنما تفعل صاعقة وجدانية شاملة مكتسحة في ذلك الجزء من الوقت أحسست لفرط تآزري معه في معركته لفرط تبني لموقفه . لقوة الخيط الذي يصل بيني وبينه والذي كاد يسحب مني الروح لتحل بجسده أحسست وكأنما الشلل الذي اصابه قد شلني أنا الآخر وأصابني ... شلل لا تفسير له ولا نبرير . شلل ساعة حدوثه لا نستطيع أبدا نسيه أو إدراكه . لا تخص به إلا هناك حيما تجلس مثلي على مكتب . تستعيد ما حدث وأمامك الوقت متسعا للتأمل والتحليل والتجديد لطالما سمعت عن تلك اللحظة وقالها الناس أمامي وسخرت من قولهم . تلك التي يقولون عنها أن سهم الله قد نفذ فأوقف التفكير وشل الجسد وأعمى الروح »

وكان هناك علاقة وطيدة بين القاص وبين المصارع . تلك العلاقة أملت عليه الشعور بالخوف والهلع والإشفاق على مصير المصارع . ومثل تلك المشاعر أو تلك العلاقة لا تنشأ إلا حينما يتعرض الإنسان لتلك المواقف الفاصلة التي تحدد بقاءه أو عدم بقاءه . والمشاعر هنا لا تختلف إن كان هذا الإنسان أخي أو ابني أو صديقي أو لا تربطني به أي علاقة . فهذا لا يؤثر في حدة المشاعر وكثافة الإحساس . فتلك الوشيجة التي تربط بين إنسان - أي إنسان - وإنسان . تفرض وحدة الإحساس فما يصيب فردا من الجنس الإنساني كأنه أصاب الجنس كله . (١٢٥) :

(القوة الغاشمة الجاهلة الحمقاء هي التي تفتك . والصحبة هي الكائن الإنساني الراقي المشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم . كم بدا لي العطل ضعيفا في تلك اللحظة ، طفلا صبيا عريا .. كم علت في عروقي دماء أعمق وأقوى القرابات ، قرابة الإنسان البشري بالإنسان البشري ، تلك التي تدفعنا بلا وعي أو إرادة لنجدة المأزوم إذا استغاث وحتى إذا لم يستغث .. لم يكن ما كنت أحسه من هلع لمختلف كثيرا لو أن المطعون كان ابني أو أخي أو أبي . فقد كنت في أقصى درجات الهلع وأقصى درجات العصف وبأحر ما استطعت من حرب كنت أصيح ، وبأقوى ما أستطيعه من هلع كنت أحقد على عدو المنادور وعدوي وعدو كل من في الساحة وعدو البشر . القوة القاهرة العمياء الغاشمة - أية قوة عمياء غاشمة - وليس عليها هي بالذات ولكن عليها حين تراها أقوى بكثير مما وأقدر، حين تراها في انتصار عارم ملموس وتحس في هيئة ساحقة باردة واقعة)

ويحمل المصارع إلى المستشفى وهو متأرجح بين الحياة والموت ، وتمضي الحياة ، ولا يعبأ أحد بما حدث . فكل المتفرجين في (الألرينا) غادروها بدون أدنى اهتمام بمصير المصارع ، متناسين أن ما لقاه المصارع هو نفسه ما قد يلقاه أي إنسان .

فذلك الإنسان الذي تحدى الطبيعة وانتصر وبنى وشيد وصعد وغاص ، وهذا التناسق في التكوين والجمال في الشكل والقدرة على التفكير والابتكار في التغيير هذا الكائن لا يملك مصيره ، والقاص إذ يفكر في هذا يحمل طاقات من الحزن لا يجد لها منفذا ، فهو لا يملك أن يفعل شيئا . (١٣٨) .

(ما هذا الجنون ؟ ولماذا أحمل وحدي تلك الجمارة السوداء الخانقة في صدري ؟ وهل أنا مسئول عن أرواح الناس وما يحدث لهم . ولماذا كان باستطاعتي أن أفعل لم أفعله لأوقف الكارثة ؟ ؟ .

القاص لا يحزن على مصير المصارع . ولكنه يحزن على مصير كل إنسان يختار كل شيء بمطلق حريته ويملك كل ما حوله . ولكنه لا يملك تقرير مصيره ولا يعرف متى ولا أين سينتهي وجوده .